الذائقة المعرفية

يحيى محمد

معلوم ان لدى البشر نظماً معرفية يختلف بعضها عن البعض الاخر، علمية او فلسفية او دينية او غيرها، منها ما يتقبل الانتماء والتعايش ضمن ذائقة معرفية موحدة رغم اختلافاتها وتعارضاتها، ومنها ما تتقوقع ضمن جزر متباعدة من الذائقات المتعارضة والمنغلقة على نفسها، بحيث تجعل من اصحابها بعضهم يغترب من البعض الاخر من دون تفهم. فثمة صعوبة في جعل الذائقة تنفتح على غيرها، واصعب من ذلك تغييرها وتحويلها الى اخرى. وقد يحصل ان تنفتح بعض الذائقات على الغير من دون تبادل، فهو انفتاح من طرف دون اخر. كما قد يحصل الانفتاح من الطرفين ويتخذ اطيافاً بلا حدود. كذلك قد تنغلق بعض الذائقات عن الغير تماماً.

ان الاحساس بالاغتراب المعرفي هو خاصية الذائقة المغلقة. وهي ظاهرة تنتمي بأطيافها المختلفة الى سيسيولوجيا المعرفة.

ويمكن التمثيل على الذائقات المعرفية المغلقة بأنماط من التعبيرات الهندسية والطوبولوجية، مثل ان يكون احدها بهيئة الدائرة او المثلث او المستطيل، او بهيئة من الانحناءات الطوبولوجية المختلفة. ولكل منها مساحة من التفكير المتاح ضمن الذائقة نفسها من دون اغتراب، وان تضمّن النقد والاصلاح والاخذ والرد، خلافاً لما يكون عليه الموقف اتجاه ذائقة اخرى مستقلة، حيث الاحساس بالاغتراب والنفور النفسي، ومن ثم عدم تقبل النقد والاصلاح والاخذ والرد.

وتبقى الذائقات المغلقة على حالها عادة؛ ليس لبعضها علاقة بالبعض الاخر، كأنها الذرات الروحية (مونادات) التي تبقى عوالمها مغلقة فيما بينها. وتتميز بعض الذائقات المعرفية بالتمرد على كل نظام معرفي محدد. فهي متطرفة ليس من الممكن التصالح بينها وبين غيرها من الذائقات.

ان الذائقة المعرفية تضع أسيجة لطريقة تفكيرنا وتصالحنا مع الافكار او تعارضنا معها معارضة الاغتراب لا النقد. ففي فضاء الذائقة ذاتها يمكن ممارسة التفكير والتفاعل مع الاراء اخذاً ورداً واعتراضاً وتطويراً واصلاحاً واستيعاباً.. وكل ذلك لا يجري مجرى الاغتراب المعرفي، اما حينما يتم خلط ذائقتين متنافرتين او مغلقتين فسيتولد هذا الاغتراب، ويصبح التعامل مع الاخرى الطارئة معاملة الطرد والنفور باعتبارها تهدد الذائقة المألوفة بتمامها، فتخشى ان تتحول من ذائقة مثلثية الى مربعية او طوبولوجية مشوهة، او نكهة منافية للطعم المستذاق.

فمثلاً ان ذائقة التفكير العلمي الطبيعي لا تستسيغ الانفتاح على الذائقة الدينية او الفلسفية لدى معالجة الموضوع المشترك عادة، كما ان ذائقة التفكير الدينية لا تستسيغ الانفتاح على الذائقة

العلمية او الفلسفية احياناً.. وهكذا.

ولسنا هنا بمعرض التأكيد على ضرورة ابداء الاحترام لحدود البحث في كل مجال كي لا تختلط الامور. فهذا ما نسلّم بصوابيته.. انما اردنا ان نشير الى الجانب الذاتي لرد فعل اصحاب الذائقة المعرفية، فاذا كان للفرد ذائقة من النوع المثلث فانه لا يطيق تفهم ذائقة النوع المربع او المستطيل او الدائري.

فمن الناحية السايكولوجية ان للذائقة سطوة كبيرة على البشر، وهي وان كانت ليست من الحتميات التي تفرض نفسها على افراد المجتمع؛ سواء كانوا مختصين او عاديين، لكنها تحمل من الضغط ما يجعل تحويرها امراً عسيراً، فهي مثل من يتناول طعاماً مخلوطاً من السمك والحلويات معاً.

وسبق للفلاسفة والعرفاء ان ادركوا شيئاً من هذا النحو من الذائقة، واحياناً تم تصوير الحال بالوعاء، فلدينا اوعية مختلفة بعضها اوسع واعمق من بعض. فالوعاء الواسع العميق له قابلية اكبر على الامتلاء بماء البحر مقارنة بالوعاء الضيق، فرغم ان البحر معروض على الجميع، لكن استفادة الوعاء الواسع اعظم من الضيق، وكذا الحال مع ادراك الحقائق ومشاهدة الامور على ما هي عليه. فصاحب الادراك الضيق لا يسعه الا بما يملكه من وعاء، لذلك ليس بوسعه ادراك الحقائق بما لا يناسب وعائه، ويضيق ذرعاً باصحاب الكشوفات العميقة، فوعائه النفسي غير مؤهل لرؤية هذا النحو من الكشف والحقيقة.

لقد كان الفلاسفة والعرفاء يعتبرون ان من الحكمة ان لا يكاشَف اصحاب الوعاء الضيق بالحقائق، وان من حكمة الله ان نزّل لهم نصوصاً فيها تشبيهات ورموز رعاية لضيق اوعيتهم، ولو كوشفوا بالحقائق لكفروا.

هذا هو رأي الفلاسفة والعرفاء لتحليل سبب عدم تقبل رجال الدين للحقائق التي ادعوا انهم استدلوا عليها بالبراهين الفلسفية والكشوفات الذوقية. ونجد في رسالة (حي بن يقظان) لابن طفيل حكاية لهذا النحو من التحليل.

فالقصة تؤكد بأن رجال الدين وسائر الناس تستهويهم الحجج الخطابية والإقناعية. فهم ليسوا من أصحاب البرهان ولا من أهل العرفان، بل نفوسهم غير مستعدة لأن تتقبل سوى تلك الحجج، وهي ما تقدمه لهم العينة الدينية من الظواهر التي يحتجّون بها، فلا يسعهم غير ما وسعهم. وبالتالي كان يجب على أصحاب التأمل وأهل المشاهدة ستر الحقائق عن الناس ومعاملتهم بالرفق واظهار انهم يرون من الاعتقادات مثل ما يراه هؤلاء، ومن ثم الضن بالحقائق والأسرار على الذين هم من غير أهلها.

تبقى ان هذه الفكرة لا تكشف عن حقيقة البعد السايكولوجي لدى البشر، فهي تفترض ان

للفلاسفة والعرفاء قدرة على كشف الحقائق بعيداً عن الدين الذي تم تصوير مهمته منحصرة في الاقناع بالظنون الواهمة. فالفكرة منحازة ومصادرة على المطلوب.

وبعيداً عن الانحياز والمصادرة، يكفي رصد الذائقة المعرفية كظاهرة اجتماعية من خلال ردود افعال اصحاب المعرفة سواء كانوا من المختصين او العاديين، كما في الحوارات او في النقد او غير ذلك. ومنها العلاقة الدائرة بين الاتجاه العلماني والديني، ففي كثير من الاحيان نجد ان ذائقة كل منهما تغترب من الاخرى. كذلك في العلاقات الدائرة بين العلم والفلسفة والدين. وتتكشف هذه الظاهرة بشكل صارخ على مستوى الافراد العاديين حيث وجود ذائقات مغلقة، كما في التوجهات الدينية المتعارضة، او حتى في دائرة الدين الواحد حينما ينتمي بعضهم الى المذهب الشيعي والاخر الى السني مثلاً، حيث نجد في بعض المواقف نوعاً من الاغتراب وعدم تفهم احدهما للاخر، لا سيما حينما يجري الحديث عن الصحابة مثلاً. فلكل من الطرفين ذائقته التي يألفها ولا يريد اصلاحها او تغييرها حتى باقوى الادلة والبراهين عادة..

تبقى المشكلة التي تواجهنا في هذا البحث هي كيف تتولد الذائقة المعرفية؟ او ما هو الاساس الذي تبنى عليه لتصبح متحكمة في طريقة تفكير البشر؟ كذلك هل يمكن لبعض الافراد تذويب الذائقات دون ان يقع في الاغتراب المعرفي؟

ومن الناحية المبدئية تتأسس الذائقة وفق النشأة المعرفية وتراكماتها وتفاعلاتها النفسية والاجتماعية. بمعنى ان البيئة الثقافية والعلمية والاجتماعية هي ما تحدد طبيعة الذائقة، فاذا كانت النشأة منفتحة فانها تساعد على انفتاح الذائقة، اما اذا كانت مغلقة فستنتج ذائقات مغلقة. والعملية ليست محتمة، اذ تخضع لجملة من العوامل، ومنها العامل الذاتي الخاص بطبيعة كل فرد بغض النظر عن الضغوط البيئية والثقافية، لذلك قد يكون لبعض الافراد قدرة على الانفتاح اكثر من البعض الاخر، كما ان تربية النفس معرفياً يمكنها ان تساعد على الانفتاح الذوقي لا سيما عندما نفتح المجال بتوطيد أنفسنا نحو ممارسة (الافتراض الاخر)، كالذي عالجناه في دراسة مستقلة.